الشهيد زيان عاشور ومحطات من جهاد منطقة الصحراء(1954-1956)

أ.د.مقلاتي عبدالله/ جامعة المسيلة، الجزائر

الملخص:

هذا المقال يتناول موضوعا هاما وحساسا، يتعلق الأمر بالشهيد زيان عاشور ودوره المرموق في إنشاء جيش ومنطقة الصحراء، وذلك خلال المرحلة الأولى من الثورة، وباعتباره مناضل قديم في الحركة الوطنية وقائد محنك استحق أن يكون أول مسؤول وقائد لمنطقة الصحراء التي أصبحت ولاية بعد مؤتمر الصومام، وفي هذه المقال نحاول التعريف بالمحطات الحاسمة لنضال وجهاد الرجل في منطقة الصحراء، ونحاول دحض تهمة المصالية التي طالته، ونعتمد في ذلك على المصادر المؤرخة لجهاد الرجل، ومنها المذكرات المخطوطة لمساعده الرائد الطيب فرحات حميدة .

Abstract:

This article addresses an important and sensitive topic concerning martyr Ziane Ashour and his prestigious role in the establishment of the army and the Sahara region, during the first phase of the revolution. He was an old fighter in the national movement and the experienced commander of the Sahara region that has become a Wilaya after Soummam Conference. In this article we try to expose the critical periods in the struggle of the martyr, and refuse the Messalist's accusations to the man using memoirs of his companion Major El Tayeb Ferhat Hmida.

Keywords: Martyr Ziane Ashour-national movement- Algerian Revolution-Struggle- Messalist's accusations.

مقدمة:

المجاهد الشهيد زيان عاشور أحد أبطال الثورة التحريرية المرموقين، عرف بمنطقة بسكرة كمناضل قديم في الحركة الوطنية وكقائد محنك إبان الثورة التحريرية، ومع ذلك تعرض للتهميش والنسيان، واتهم بموالاة بلونيس والحركة المصالية، وفي هذه المقال نحاول التعريف بالمحطات الحاسمة لنضال وجهاد الرجل في منطقة الصحراء، ونحاول دحض تهمة المصالية التي طالته، خاصة وأن استشهاده المبكر لم يسمح له مثل سي الحواس بالدفاع عن نفسه ودحض افتراءات الجماعة المصالية، فقد ظل سي مفتاح القائد المصالي ينشر بين سكان أولاد نايل دعاية أن سي زيان مصالي، وأنه خليفته في القيادة، ونعتمد في ذلك على المصادر المؤرخة لجهاد الرجل، ومنها المذكرات المخطوطة لمساعده الرائد الطيب فرحات حميدة .

أولا . المسيرة النضالية لزيان عاشور:

ولد رحمه الله عام 1919 بمنطقة البيض التابعة لأولاد حركات دائرة أولاد جلال ولاية بسكرة حاليا، عاش طفولته في البادية، وزاول تعليمه بزاوية القصيعات ثم انتقل إلى منطقة عين الملح حيث أتم حفظ القرآن الكريم، ودخل إلى زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال لينال قسطا لا بأس به من علوم الدين والفقه، خضع في سنة 1939 للتجنيد الإجباري ولم يسرح من الجيش إلا في سنة 1945، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية انخرط في صفوف حزب الشعب وكلف بالدعاية والأخبار بناحية أولاد جلال، ومن أجل تأدية مهامه على أكمل وجه فتح دكانا ثم مقهى بأولاد جلال، وكانت هذه المقهى محل شبهة من قبل الإدارة الفرنسية التي بادرت لغلقها عدة مرات، وقد اعتقل زيان عاشور أول مرة عقب حوادث الثامن ماي 1945، وأطلق سرحه اثر العفو لعام في مارس 1946، واعتقل ثانية عام 1948 لمشاركته الفعلية في دعم حزب حركة الانتصار في الانتخابات، واثر أشهر أطلق سراحه واستقبل باحتفالات عارمة في أولاد جلال، وصارحه حاكمها العسكري بالقول انه عليه التوقف عن نشاط الحركة الوطنية محاولا إغرائه بمنصب عمل، وأمام تواصل الاضطهاد قرر زيان الرحيل إلى فرنسا وهناك واصل نشاطه، وقد تولى عدة مسؤوليات بين أوساط المهاجرين، وفي سنة 1952 عاد إلى مسقط رأسه، وتعرض من جديد للمضايقات واعتقل عدة مرات، ولكنه لم ينقطع عن النشاط السياسي ورفع المطالب الاجتماعية للسلطات الفرنسية(1).

تأ لم سي زيان لانشقاق الحركة الوطنية، وقد أبلغه ممثل أولاد جلال في مؤتمر الحزب بهورنو محمد بلكحل بالانسداد الذي آل إليه الحزب، وقبل اندلا ع الثورة التقى سي زيان بمحمد بوضياف في بسكرة، وقد طلب منه الأخير أن ينسق مع ابن بوالعيد وأن يعد نفسه للثورة، فرد عليه سي زيان بان كل شيء جاهز في منطقته، وأنه سيتصل بابن بوالعيد، وقد كلفه ابن بوالعيد بمسؤولية منطقة الصحراء، فبدأ في تجنيد الشباب والتحضير للثورة، وظل سي زيان ينتظر أمرا مكتوبا وعده به بوضياف، ولكنه لم يتحقق، ولم يمنع ذلك وصول مرسول من بسكرة يطلب من محمد بلكحل القيام بشيء ليلة الفاتح نوفمبر، والذي طلب من مناضلي أولاد جلال قطع خطوط الهاتف، وبقي سي زيان ينتظر الأوامر التي لم تصل الى غاية الثامن نوفمبر 1954(2)، اليوم الذي اعتقل فيه سي زيان ونقل إلى سجن الكدية بقسنطينة، وتحسر كثيرا لأنه لم يثق كثيرا في بوضياف المعروف بعدائه الشديد لمصالي، الذي اشترط منه أمرا مكتوبا للقيام بالثورة، وقد كان نظاميا يتبع العربي بن مهيدي ويعرفه جيدا فهو مسؤوله في بسكرة، ولكن الأخير انتقل الى منطقة وهران، ورغم الجهود الذي بذلها ابن العيد فان الاتصال لم يحصر في الوقت المحدد مع زيان(3)، لقد كان ابن بوالعيد يأمل كثيرا في أن يكون زيان قائدا للثورة في جهة الصحراء لسابق عمله في المنظمة الخاصة، ولكن بعد المكان حال دون ربط الاتصال.

وفي السجن التقى زيان برفاق النضال، ومنهم عبدالرحمن بن العقون ومجموعة المركزيين، وتعرف هناك على بعض حقائق الثورة، وقيل انه التقى بابن بوالعيد في الكدية ولكن ذلك غير مؤكد(4).

ثانيا . التحاق زيان عاشور بالثورة:

حكم على زيان بثمانية أشهر سجنا، وأطلق سراحه في أواخر جويلية عام 1955، ومباشرة بعد إطلاق سراحه عرج على العلمة وسطيف للقاء بعض المناضلين، ونزل في بوسعادة وشرع في الدعوة للثورة، وفي طريقه لأولاد جلال عرج على عين الملح والتقى بعض أعيانها، وحدثهم عن ضرورة الاستعداد للثورة.

وفي أولاد جلال قام سي زيان بعدة اتصالات لإتمام التحضيرات التي كان قد بدأها قبل اندلا ع الثورة عندما اتصل به محمد بوضياف، وقد كان الجو مهيئا والمناضلون بانتظار زعيمهم، وقد تولى احمد بن عيسى في غياب زيان المسؤولية، واستقبل في أولاد جلال العناصر الأولى القادمة من الأوراس بتوجيه من محمد بن بوالعيد والحسين بن عبدالباقي ومحمد بن المسعود قاسمي وسي الحواس(5)، كما أن أوعمران وكريم أدركا أهمية الاتصال بمنطقة الصحراء، واعتمادا على بعض المناضلين حاولا مد الثورة إلى بوسعادة وأولاد جلال، ومثلما كان بن بوالعيد يعتمد على زيان في قيادة الثورة في المنطقة عبر اوعمران على أمله في إنجاح الاتصال بزيان في أولاد جلال، "عندما كنا نعد للثورة كنا نعتمد على سي زيان في منطقة الصحراء"(6).

ووجد سي زيان الجو مهيئا للشروع في تنظيم جيش الصحراء وبدأ الجهاد، وفي ظرف قصير شرع في التحضير والتعبئة، أجرى عدة اتصالات وعقد العديد من الاجتماعات، نسق الجهود وطلب من الراغبين في الالتحاق بالثورة شراء السلاح المتوفر لدى بدو المنطقة، واعتمادا على المجموعات الأولى وحملة التجنيد الواسعة أصبح سي زيان يقود جيشا قوامه سبع مائة مجاهد، لقد جمع كثيرا من أعراش الصحراء حول فكرة الجهاد، وكانت مشاربهم متعددة، بعضهم كان في صف الجيش الفرنسي، وكثير منهم من قادة الأعراش(7)، كما أن قادة المجموعة الأولى في الجبال ومنهم لخضر رويني والشريف شنوفي وعمر إدريس لم يترددوا في الخضوع لقيادة سي زيان المعروف بشخصيته الوطنية والحكيمة، وكانوا النواة الصلبة للجيش الذي بدأ ينتظم ويتقوى في جبال بوكحيل والجلفة وعمور والأغواط(8).

وهكذا وبعد أن أنشأ الخلايا المدنية في المدن والأعراش، وجمع السلاح والمؤونة ونظم الشعب شرع في ديسمبر 1955 في خوض المعارك ضد قوات الاحتلال الفرنسي بمناطق بوسعادة وأولاد جلال والجلفة(9).

كان سي زيان يتمتع باحترام كبير وشخصية كارزماتية، فهو رجل متدين وخطيب مفوه ومناضل مخلص، له شعبيته بين شباب المنطقة، وهو ذاته الانطباع الذي سجله عنه الرائد الطيب فرحات حميدة الذي عرفه عن كثب "أعجبت بحسن خلقه واستقامة تفكيره مع لياقة بدنية ممتازة..."(10)، وبفضل هذه الخصال استطاع زيان عشية الثورة تجنيد الشبان المناضلين واسترجاع مخزون سلاح تابع للمنظمة الخاصة، وان يحيي خلايا المنظمة بالمنطقة بمساعدة رفيقه عبدالقادر رمضان المدعو

"لرش"(11)، وما لبث أن توسع نشاط جيش زيان ليشمل مناطق واسعة من بوسعادة والجلفة، ويعود ذلك إلى شخصية سي زيان وحكمته السياسية(12).

في أواخر عام 1955 واجهت سي زيان مشكلة التواصل مع قيادة الثورة في الأوراس والقبائل، وعندما تواصل مع أوعمران طلب منه الأخير إرسال جنود متطوعين لمساندة إخوانهم في الشمال، أرسل له بعض الأفواج ولكنه اعترض عن إرسال جنوده فيما بعد(13)، واشتكى إلى بن بوالعيد عند لقائه به في مارس 1956 هذه السياسة التي ينتهجها القبائليون فنصحه ابن بوالعيد بعدم إرسال جنوده من جديد(14)، وتشير الشهادات والوثائق إلى أن سي زيان كان يقود مجموعات ناهز عدد جنودها الثمانمائة(15).

إن مجموعات جيش التحرير الوطني التي قادها سي زيان، ونمت بهذه السرعة المطردة سرعان ما أصبحت تقلق هاجس الجيش الفرنسي في الصحراء، حيث أصبحت ضرباتها موجعة تستنزف وحدات الجيش من جهة، وتحقق لسي زيان شهرة واسعة، ومن المعارك الطاحنة التي خاضها جيش سي زيان معركة قزران بجبل بوكحيل في ماي 1956، وقد دامت يومين وخلفت خسائر كبرى في صف الفرنسيين، ومعركة عين الريش، التي كانت عبارة عن هجوم قاده زيان بنفسه على ثكنة فرنسية، وقد عمر إدريس بدوره معركة كبرى بقعيقع يوم 10 جوان 1956(16).

لقد عين سي زيان عمر إدريس نائبا عسكريا له وشقرة بن صالح وبلقاسم بقزي نائبين سياسيين، وقسم منطقته إلى سبع نواحي في كل واحدة مجموعة خلايا مدنية ووحدات عسكرية، ونصب عدة مصالح، كالاتصالات والتموين وجمع الأخبار، والتعبئة والتعريف بالثورة(17).

وقد عرف زيان بحكمته وحنكته التي مكنت من قيادة الثورة وإنجاح مسيرتها، وقد كان سياسيا محنكا، ورجل دين، وله صداقات وتجربة في القيادة والتسيير اكتسبها من نضاله وتجربته في الخدمة العسكرية وهجرته لفرنسا، استطاع أن يوحد كلمة المجاهدين وأن يقودهم للنجاح، وقد كان يؤكد في خطبه دائما أن الثورة لم تعد مربوطة بالأحزاب، وإنها جهاد مقدس للشعب الجزائري، وقد سعى لإنهاء التناحر بين ممثلي حزب البيان وحزب حركة الانتصار بمدينة الأغواط، وأنشأ لجنة شعبية موحدة من الحزبين البيان وحركة الانتصار بالجلفة تراعي الحساسية العروشية وطموح الأشخاص للزعامة، فكان من أعضائها محمد شونان البياني وبن فايد، وقد وقف في وجه أحد ممثلي حزب البيان في الاغواط وأحد أعيان أولاد جلال من حركة الانتصار فاكتفى بوعظهما، ورأى أن يحاكم المعارضين له ويعفو عنهم، وكان يرسل بخصومه الى سي الحوسين بن عبدالباقي للتحقيق معهم، واكتشف سي زيان أن كل ما يحاك ضده تحركه النعرات العروشية وكذا الحركة المصالية انطلاقا من العاصمة ومن قبل بلونيس الذي حل بالمنطقة(18)، وقد قيل أن أحد أنصار بلونيس كان مندسا في جيشه، حاكمه سي الحوسين والطيب حميدة

واكتشفوا أن الحركة المصالية حكمت باعدام سي زيان، وعندما علم سي زيان بالأمر عفا عنه واكتفى بوعظه(19)، وقد يكون الشخص ذاته المعروف بمؤامراته متورطا في استشهاده، وانتقل بعدها إلى جيش بلونيس(20).

لقد عرف سي زيان بانضباطه، وإن كان سعى بجهده الخاص إلى تشكيل فرق جيش التحرير الوطني فإنه اجتهد في الاتصال بقيادة الثورة أينما كانت، وخاصة في الأوراس، فبعد أسابيع قليلة من صعوده الجبل أرسل دورية للاتصال بمصطفى بن بوالعيد، وهذا ما يؤكده المقربون منه، ومنهم الطيب فرحات، والذي أفصح قائلا:" حرص سي زيان على وضع عمله في الإطار النظامي الوطني، فلم تمر أسابيع حتى كانت دورية اتصال من عنده في طريقها نحو سي مصطفى بن بوالعيد الذي يعرفه قبل الثورة شخصيا ونظاميا"(21)، وفي بداية عام 1956 حصل الاتصال بابن بوالعيد، وعين زيان رسميا قائد لمنطقة الصحراء، واجتمع به في مارس 1956 واستقبله ابن بوالعيد معلنا لرفقه بصراحة "قد جاء الرجل الذي نعتمد عليه في الصحراء"(22)، كما أنه كانت له اتصالات بالمنطقتين الثالثة والرابعة، وأرسل الطيب فرحات حميدة للاتصال بمنطقة وهران والبحث عن إمكانية التزود بالسلاح لتقوية منطقة الصحراء(23)، ولا شك أن مثل هذه المواقف تؤكد أن سي زيان مؤيد لجبهة التحرير الوطني، فهو لم يكن يريد أن يظهر مستقلا وبعيدا عن النظام، ولا أن يترك المجال ليحكم عن انتمائه جماعة مصالي الحاج، ومع ذلك سارت تهمة المصالية في حق زيان كسير النار في الهشيم.

ثالثا . اتهام سي زيان بالمصالية:

يبدوا أن دراسة قضية المصالية تحتاج الى توضيح سياقها التاريخي، ففي ظل انفجار الثورة المفاجئ ومن قبل عناصر ناقمة على سياسة مصالي، وسعي الأخير لسحب البساط منها معتمدا على سمعته وشعبيته الواسعة، في ظل هذه الظروف التبس الأمر على كثير من الوطنيين، ومنهم سي الحواس وسي زيان وآخرون انجروا وراء الدعاية المحبكة للمصالية في الصحراء، فقد كان زيان يعتقد أن الحركة المصالية والزعيم المقدس يقف وراء الثورة، وخاصة وأن زيان اعتقل في بداية الثورة ووجد أغلب معتقلي الكدية من رجال حركة الانتصار، وعندما عاد الى أولاد جلال لم يجد تنظيم لجبهة التحرير يرفع اللبس الحاصل، وقد حاول مرارا أن يفهم الوضع من خلال ربط اتصالات بابن بوالعيد والقادة القبائليين، ولكنه لم يوفق.

وفي ظل هذا الغموض حاولت الحركة المصالية ضم زيان لصفها، والترويج بأنه عنصر موالي لهم، ففي رسالة بعث بها القائد السياسي في الحركة المصالية سي بوزيد الى أحد القادة الميدانيين المدعو أبو بكر يلح عليه بالنص: " أطلب منكم من جهة أخرى أن تحرسوا بأنفسكم أولاد جلال وأن تكونوا على اتصال بالجيش وتدعون سي زيان ليضع جنوده تحت مسؤوليتكم باستثناء العدد القليل الذي يبقيه تحت مسؤوليته"(24)، وعندما شعرت الحركة المصالية بوضوح موقف سي زيان ولقائه بابن بوالعيد حكمت عليه بالإعدام وأرسلت شخصا من العاصمة لتنفيذ المهمة، وطلبت من العناصر الموالية لها بأولاد جلال الانفصال عن

جيش زيان وإثارة البلبلة وسطه(25)، كما أن منشورات الحركة الوطنية حرصت على عد سي زيان قائدا لأفواج الحركة المصالية، وعنها وبواسطة دعاية المصاليين اعتقد بعض الصحفيين والكتاب أن سي زيان مصالي، ومنهم الصحفي الفرنسي فيليب قايار، وبن جامين ستورا، وجلبار مني، الذي ذكر أن زيان كان مصاليا، ثم استقل بجيشه(26) .

ومن جهة أخرى أثار تهمة المصالية في وجه زيان القادة الأوراسيون، وخاصة عجول ونوابه على الصحراء، إذ استدعي سي الحواس وحكم عجول بإعدامه ولكن ابن بوالعيد تدخل لإنقاذه لسابق معرفته بتوجهاته، وأثيرت التهمة ضده في اجتماع القادة الأوراسيين بعميروش في القبائل نهاية عام 1956، وأجاب سي الحواس محاكميه بالقول أن تهمة المصالية "مجرد نميمة"(27)، ونعتقد أن أسباب عروشية وشخصية كانت تقف وراء اتهام عجول لسي الحواس بهذه التهمة، فقد كان منافسا له في المنطقة الخاضعة لسلطته بواسطة حسين بن عبدالباقي، وقد استشرى الخلاف فيما بعد بين هذا الأخير وسي الحواس(28)، وهو ما سمح بتبادل التهم، فأشهر الاوراسيون تهمة المصالية ضد سي الحواس وسي زيان، الذين يتقاسمان السلطة في الصحراء.

إن العلاقة بين سي الحواس وسي زيان كانت وثيقة وأخوية، وإذا ثبت لدينا براءة سي الحواس فإن سي زيان بريء بدوره من تلك التهمة، في أوت 1955 انتقل نشاط سي الحواس إلى ناحية طولقة وأولاد جلال، وهناك احتك بنشاط سي زيان، والذي ذاع اسمه في المنطقة كقائد ثوري، يرفع راية الجهاد ضد المحتل، وقد تمركز في أولاد جلال منذ خروجه من سجن الكدية في جويلية 1955، وكان لزاما على سي الحواس الاتصال به.

وفعلا وقعت الاتصالات التي حددت العلاقة بين الرجلين، وهو ما يؤكد أن سي زيان كان مواليا لقيادة الثورة في الأوراس، فقد كان على معرفة سابقة بابن بوالعيد وعلى اطلاع بنشاط الثورة المركز هناك، وكانت لسي زيان علاقة جيدة مع الحسين بن عبدالسلام ونائبه سي الحواس(29)، وعن طريق سي الحواس ربط ابن بوالعيد الاتصال بسي زيان، حيث كلفه بعد معركة افري البلح في 13 جانفي 1956 بتبليغ سي زيان أمرا مكتوبا بتعيينه على رأس قيادة المنطقة الصحراوية، وهو ما أكده سي الحواس لعميروش بالقول:" وقد عينته مسؤولا عاما بعد رجوعي من الملاقاة مع سي مصطفى"(30)، وقد يكون ابن بوالعيد أعجب بعمل سي زيان في الصحراء، ورأى أن يكسبه لصالح منطقة الأوراس، ولهذا استدعاه واستقبله بحفاوة أثناء اجتماعه بممثلي قادة الجبهة الغربية للأوراس بالجبل الأزرق يومي 22 . 23 مارس 1956(31)، إن كل ذلك يؤكد أن سي زيان لم يكن مصاليا، بل مواليا لقيادة جبهة وجيش التحرير الوطني وعلى رأسها ابن بوالعيد، فهو قد قبل بكل ثقة ومن منطلق قوة أن يكون تحت إمرة بن بوالعيد، ووافق على تعيينه مسؤولا على منطقة الصحراء التابعة للمنطقة الأولى، وهو الذي أثار حفيظة العناصر المصالية المدسوسة في جيشه.

لقد حاولت الحركة المصالية انطلاقا من الجزائر العاصمة واعتمادا على اللجنة السياسية في جيش زيان تدبير مؤامرة لاغتياله، ولكن عمر إدريس تفطن للأمر، وعندما عاد زيان من الأوراس واطلع على المخطط فضل العفو على مدبري الانقلاب وكسبهم لصفه، ولكن هؤلاء عادوا للتآمر عليه من جديد وربما تسببوا في استشهاده(32).

وحصل كل ذلك قبل وصول بلونيس إلى منطقة الصحراء في مارس 1956، حيث كان سي زيان يبحث عن الاتصال بالقيادة التي تقود الثورة، ولم يكن على اطلاع واضح على قضية مصالي وجيش بلونيس المتصارع مع جيش التحرير الوطني، ولا شك أنه اقتنع بوجهة نظر ابن بوالعيد وسي الحواس في أن القيادة يجب أن تكون لجبهة التحرير الوطني، ولا يمكن السماح لجماعة بلونيس الإضرار بالثورة.

لقد ورد اتهام سي زيان وسي الحواس بتهمة المصالية في كتابات بعض الباحثين الفرنسيين والجزائريين ومنهم إيف كوريار وكلود بيا وبن جامين سطورا ومحمد حربي ومحمد العربي الزبيري، فالأول ادعى أن بلونيس عين سي الحواس وسي زيان مساعدين له في الصحراء، وتحدث سطورا عن رسالة بلونيس إلى مساعده فراح يطلب منه الاحتراز من سي الحواس وسي زيان واصفا إياهما بالمساعدين السابقين(33)، والحقيقة أن الرسالة تحمل معان كثيرة، فعدم وثوق بلونيس في سي الحواس وسي زيان يعني أن الرجلين لا يتعاونان معه، وقد وثق محمد العربي الزبيري في صحة الرسالة ولم يحلل مضمونها، وذكر بإطلاق ودون تمحيص أن بلونيس اعتمد سي الحواس وسي زيان مساعدين له في الصحراء، وهو لم يتجسد حقيقة(34).

إن بلونيس وأنصاره استطاعوا الترويج لفكرة أن سي زيان تابع لحركتهم المصالية، وذلك على الرغم من أن سي زيان كان عدو الحركة الأول، الذي بربحت لتصفيته ونجحت في ذلك، ومما يؤسف له أن الحقيقة لم تتجلى ناصحة، ونجد اليوم من يردد دعاية "جيش الحركة الوطنية الشعبية"، لقد كانت هذه الحركة تروج لهذه الدعاية خدمة لأهداف كثيرة، منها كسب الأتباع في الصحراء، وإثارة البلبلة في صفوف جيش التحرير الوطني، وإحباط معنويات السكان.

والحقيقة التي تؤكدها المصادر وشهادات الشهود هي أن سي زيان تحول إلى عدو لحركة بلونيس المصالية، وهو ما عبر عنه رفيقه الرائد الطيب فرحات حميدة في مذكراته المخطوطة(35)، وأوضح الرائد عمر صخري في شهادته أن سي زيان تلقى رسالة من بلونيس تطلب مساعدته بالتموين، وأنه استشار سي الحواس وأشار عليه بتقديم المؤونة دون السلاح إلى غاية معرفة حقيقته، وهو ما فعله زيان، إذ حدد له منطقة لا يتجاوزها، ولكن تصرفات بلونيس المشبوهة جعلت سي زيان يطلب من نائبه عمر إدريس بطرده إلى منطقة الناظور(36).

وقد رد سي زيان بصراحة واضحة على رسالة بلونيس في مارس 1956، والتي طالبه فيها بمقاتلة جيش وجبهة التحرير الوطني، وخاطب حامل الرسالة قائلا:" قل لهذا الخائن إننا لم نأت لقتال جيش التحرير الوطني والجبهة ولكن لقتال فرنسا"(37)، وإن وصف سي زيان لبلونيس بالخائن فيه دلالة قاطعة معاداته لبلونيس واصطفافه إلى جانب جبهة التحرير الوطني .

وأورد تقرير مجلس الجزائر العاصمة للحركة المصالية الموجه إلى مصالي بداية عام 1957 أن سي الحواس وسي زيان إلى جانب مفتاح وبلونيس يشكلون قيادة الجيش في الجنوب، وأن الاتصال قائم مع سي الحواس(38)، ولكن ذلك كان يندرج في إطار الدعاية ورفع المعنويات وتقديم معلومات مبالغ فيها "للزعيم"، وإن مثل هذه التقارير المبالغ فيها أربكت كثيرا من الباحثين وجعلتهم يحكمون على زيان أنه كان مواليا للحركة المصالية في البداية، ثم اتخذ موقف الحياد قبل أن يلتحق نهائيا بجبهة التحرير، وهو ما لم يثبت لدينا، فكل الشواهد تؤكد أن سي زيان اختار منذ البداية الوقوف إلى جانب جبهة التحرير الوطني واجتهد في ربط الاتصال بقادتها في الأوراس والقبائل(39).

وقد حاولت العناصر المصالية المنتشرة بالمنطقة آنذاك بث دعاية مفادها أن سي زيان هو أحد قادة المصالية العاملين في الصحراء، وقامت الإدارة الفرنسية بالترويج لهذه الدعاية حتى أن الكتاب اعتقدوا أنه كان مرتبطا بالمصالية، ولكن الحقائق التي اطلعنا عليها تؤكد غير ذلك، وتوضح أن ارتباط سي زيان كان وثيقا بقيادة الأوراس كما أسلفنا.

وأبلغ دليل على عدم ولائه للمصالية هو محاولة المصاليين تدبير انقلاب ضده أثناء غيابه عن المنطقة لكن جنوده تفطنوا لهذه المكيدة وأفشلوها، ونشير إلى أن نشاط المصالية تضاعف بهذه المنطقة خاصة بعد أن لجأ بن لونيس إلى جبال أولاد نايل في أواخر 1956 فأرسل سي زيان فرقة من جيش التحرير بقيادة عمر إدريس إلى هذه المنطقة وطهرها في أوائل شهر ماي 1956، وبذلك وقف جيش سي زيان في وجه المؤامرات والمخططات المصالية، وكان له دور كبير في تثبيت قواعد الثورة بمنطقة الصحراء.

وقد كان سي زيان حريص على تنسيق نشاطه مع سي الحواس لا أتباع بلونيس، والشواهد على ذلك كثيرة، فبعد العودة من اجتماع الأوراس عقد اجتماعا معه في جويلية 1956 بجبل النسينيسة (بوسعادة)، وذلك بحضور عدد من المسؤولين، وخلاله وقع الاتفاق على العمل المشترك والتضامن والتنسيق، وحددت المنطقة الجغرافية لقيادة كل من سي الحواس وسي زيان، فقد كانت منطقة الأخير تمتد من جبال أولاد نايل إلى مناعة غربي بوسعادة، والى الجلفة والشارف ثم أفلو والقعدة، ولتصل من جهة أخرى إلى الجبل الأزرق بالمخاليف والى الأغواط(40)، وخلال الاجتماع ذاته أنشأت لجنة مشتركة لتوحيد المالية، كما وضع حد

للخلاف حول تبعية مدينة بوسعادة وقرية الهامل بصفة مرضية(41)، وتفرغا القائدين للنشاط الثوري الي عرف وتيرة متزايدة أزعجت أنصار بلونيس.

ونشير إلى أن القائدين كانا يتبعان مسؤول الناحية الحسين بن عبدالباقي، الذي كان يتخذ من الأوراس الغربية والقنطرة مقرا ويرفض سياسة التجنيد في الصحراء، والقصد من ذلك .كما خطط عجول . أن تضل المنطقة قاعدة خلفية للأوراس لا أن تتحول إلى قوة عسكرية منافسة، وهذا التوجه أثار حفيظة سي الحواس واصطدم بواقع جيش سي زيان العرمرم.

وعندما تعرض الأوراس للانشقاق وانقطع الاتصال بعجول طلب سي الحواس من قائده ضرورة الاتصال بقادة منطقة القبائل أو وهران وإلا التخلي عن المسؤولية لصالح سي زيان في المنطقة، وهو الأمر الذي نوقش في اجتماع حضره سي زيان خلال أوت 1956، وظهر خلاله الخلاف مع القائد الحسين بن عبدالباقي الذي قرر العودة للاوراس وترك القيادة بيد سي الحواس وسي زيان، وقد تدخل زيان بحكمته لإجراء الصلح بين سي الحوسين وسي الحواس(42)، ويكون ذلك قد أغاض عجول الذي اعتبر ذلك تمردا، وربما سعى إلى إلصاق تهمة المصالية بالرجلين انتقاما من موقفهما، فعندما حل اعميروش بالاوراس وجد جماعة عجول تتحدث عن خيانة سي الحواس وسي زيان، وهو ما استدعى دعوة سي الحواس لمسائلته عن هذه التهمة في حين أن سي زيان كان قد التحق بالرفيق الأعلى.

ووصلت هذه الحملة إلى هرم القيادة في العاصمة حيث أشار عبان في رسالته الى خيضر في فيفري 1956 الى بقاء بعض رؤساء الأفواج في الأوراس موالية لمصالي، وهو يقصد سي الحواس وسي زيان(43).

وفي أوت 1956 تدخل سي زيان بحكمته ليقض الخلاف بين الحسين بن عبدالسلام وسي الحواس، وقد أعجب الطيب فرحات بموقف سي زيان، وإعجابا بوطنيته وإخلاصه اتخذ قرار الانتقال نظاميا إلى منطقته، وخاصة بعدما شاهده من محاولة اقتتال بين الخصمين سي الحوسين وسي الحواس، " قررت الالتحاق بمنطقة سي زيان لأنه المسؤول النظامي الوحيد الذي بقي في الصحراء بعد رحيل سي الحوسين، ولأنني احتفظت من اتصالي به أثناء رحلة الأوراس بصورة رائعة عن مسؤول كان على عكس كثيرين آخرين غير مغرور بنفسه ولا سلطوي في تسييره ، يعيش ويفكر كمناضل لا يعتبر المسؤولية سيادة ولكن عملا وتضحية"(44)، إن هذه الشهادة ومثيلاتها الكثيرة تدل بوضوح أن سي زيان شخصية تنال الإعجاب بفضل إخلاصها، وهو ما جعل حركة بلونيس تعاديها وتسعى للتخلص منها وفتح الطريق أمامها في المنطقة.

ومما يؤكد وفاء سي زيان لجبهة التحرير الوطني قبوله تجسيد مقررات الصومام التي كانت المحك الحاسم في توضيح الاتجاه وهو ما أدى بالجماعة المصالية إلى التخطيط لاغتياله قبل أن يشرع في تجسيد مقررات جبهة التحريري الوطني، فقد توصل سي

الحواس بتلك القرارات من العربي بن امهيدي المتواجد في العاصمة، واستدعى سي زيان لتدارسها، وخلال يومين من الاجتماع بجبل مساعد تقرر قبول العمل بأرضية مؤتمر الصومام، وتم الاتفاق على توحيد القيادة والجيش وفقا لقرارات الصومام، وعقد لقاء عام بالمجاهدين أعلن فيه عن نتائج مؤتمر الصومام وشروع كل من سي الحواس وسي زيان العمل به، وأعلن سي الحواس في خطابه أنه إذا غاب أحدهما ينوب عنه الآخر في القيادة، وإثرها عاد سي زيان إلى مركز قيادته(45). ولا شك أن المعلومات المتوفرة حول الموقف من المؤتمر شحيحة وغير دقيقة، ولا نحوز التفاصيل الكافية حول الموضوع.

وحسب شهادة المجاهد شنوفي الشريف فإن سي الحواس بعد اطلاعه على وثائق الصومام أرسل لجنة الى سي زيان لاطلاعه على الأمر، ولكن اللجنة التي ترأسها عبدالرحمن عبداوي لم تدرك سي زيان الذي استشهد(46).

ومعلوم أن مؤتمر الصومام أسس ولاية الصحراء وجعل على قيادتها علي ملاح، بدوره هذا الأخير راسل سي زيان يبلغه أن قادم إلى منطقته على رأس فوجين من المجاهدين، فرد عليه سي زيان بتقبل الأمر وأنه وجيشه البالغ نحو ألف مجاهد تحت أمره، وهو موقف يعبر عن انضباط سي زيان واحترامه لقرارات جبهة التحرير الوطني، وكان بإمكانه في هذا الموقف أن يوالي الحركة المصالية ويعادي القيادة التي لم تقدر مكانته وتعينه قائدا للولاية، وقد شعر علي ملاح بخطأ القيادة وتمنى أن تعين زيان في المنصب الذي أسند له(47).

ويبدوا أن قيادة منطقة القبائل لم تتعرف على زيان على حقيقته وعلى مكانته العسكرية في الصحراء، لهذا وجه عميروش دعوة لسي الحواس عندما زار الأوراس ولم يوجهها لسي زيان، وقد حاول سي زيان الاتصال بمنطقة القبائل دون جدوى، واجتهد في التواصل مع أوعمران عبر منطقة سور الغزلان سيدي عيسى، وخلال اجتماع قيادة الأوراس بعميروش ومحمدي السعيد في بداية عام 1957 أبلغ عميروش الحضور باستشهاد سي زيان، وأعلمهم بإرسال لجنة إلى خليفته عمر إدريس للوقوف على تجسيد مقررات الصومام(48).

إن استشهاد زيان جاء في ظروف غامضة، وذلك خلال معركة وادي خلفون قرب جبل ثامر التي وقعت يوم 7 نوفمبر 1956، إذ استشهد خلالها رفقه بعض جنوده، وذلك بعد سجل من البطولات والمجد الذي لا يزال يحفظه سكان المنطقة ويرددونه بفخر واعتزاز(49)، وحسب شهادات المجاهدين فقد وقعت المعركة إثر اكتشاف القوات الفرنسية لوجود فرقة المجاهدين بوادي خلفون، وقد يكون ذلك عن طريق الوشاية، فقامت بمحاصرة المكان واستقدام قوات برية وجوية، كان عدد المجاهدين 35 مجاهد، وعلى الرغم من عدم ملائمة المكان المكشوف وقلة الجنود قرر زيان خوض المعركة، وبعد ساعات من المقاومة نفذت ذخيرة المجاهدين، استشهد سي زيان رفقة سبعة من رفاقه، وأسر عدد آخر، واستغل العدو الموقف ليقوم بدعاية نفسية

لإرباك المجاهدين والشعب، حيث قام بعرض جثة زيان في أولاد جلال والقرى المجاورة لها، وتغنت الصحافة الفرنسية بما تم انجازه(50).

وتشير الوثائق الفرنسية الى تفاصيل ضافية عن المعركة، فقد وقع تتبع أثر فرقة سي زيان في منطقة جرداء، استقدمت القوات واستعمل الطيران لضرب الموقع، مما سمح بقتل عدد منها، وأسر نحو 33 عنصر، وأفادت المعلومات المقدمة من قبلهم في معرفة بعض الحقائق عن سي زيان، وتشير بعض المصادر إلى أن قوات بلونيس كانت قريبة من مسرح العملية، وتظاهرت بتقديم المساعدة ولكنها ظلت بعيدة، وهو ما يطرح أكثر من تساءل، إذ يظل احتمال الوشاية به للجيش الفرنسي واردا كما أسلفنا(51).

ولم يكتف المصاليون بمعاداة زيان فحسب، بل ادعوا بعد استشهاده أنهم الوريث الشرعي لسلطته، حيث توضح وثيقة المكتب الثاني للجيش الفرنسي أن النقيب مفتاح أصبح بعد القضاء على بلونيس يدعي أنه وريث القائد سي زيان، وذلك في محاولة لكسب أكبر عدد من القوة والأنصار، ومسح عار خيانة بلونيس، وقد ناهز جيشه الذي كان يقوده بمساعدة بن دغمان وجغلاف نحو ألف ومائتي جندي(52)، ومثلما حاول اغتيال بلونيس فإنه اغتال عددا كبيرا من قدامى الحركة الوطنية المنتمين سابقا لجيش زيان عاشور، تلك العناصر التي تكون وراء اغتيال زيان والالتحاق بجيش بلونيس(53).

الخاتمة:

ومما سبق ذكره نخلص للتأكيد أن سي زيان كان من الوطنيين المخلصين ومن رجال الدين الوطنيين، قاد جيش التحرير الوطني في منطقة الصحراء وأربك القوات الفرنسية وجماعة بلونيس، وقد كان مرتبطا بقيادة الأوراس واجتهد في تجسيد مقررات الصومام، ومع ذلك ألصقت بشخصه تهمة المصالية، وقد تبين لنا بالحقائق والأدلة أنه كان ثوريا مجاهدا، ومسؤولا على أول جيش نظامي بمنطقة الصحراء، ومؤمنا بقيم ورسالة جبهة وجيش التحرير الوطني، ومناهضا لحركة بلونيس الهدامة.

الهوامش :

[1] مقلاتي عبدالله: موسوعة تاريخ الثورة الجزائرية، ط1، دار شمس الزيبان، الجزائر، 2013، ج 5 ، ص ص 218 217

2 هذه رواية سي زيان من جهة ومحمد بوضياف من جهة ثانية للرائد الطيب فرحات، الطيب فرحات حميدة: قصة الثورة في الصحراء، مذكرات مخطوطة، ص 33

3 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص42

4 عبد الكريم قذيفة: الشيخ زيان عاشور العالم الزاهد والبطل المجاهد، دار الوسيط، 2011، ص ص 41 ـ 46

5 بلقاسم زروال: فرسان في الخطوط الأولى، صفحات من رحلة الجهاد في الأوراس والصحراء، دار الاوراسية، 2012، ص 63 وما بعدها

6 مداني مجاهد : الشهيد عاشور زيان، الجمعية الخلدونية: من أعلام الولاية السادسة التاريخية بمنطقة الزيبان، أعمال ملتقى منشورة، الجمعية الخلدونية، بسكرة، 2013، ص 117.

7 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص ص55 ـ 56 .

8 المداني بجاوي: المرجع السابق، ص 119

9 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص53 وما بعدها

[10] الطيب فرحات حميدة: قصة الثورة في الصحراء، مذكرات مخطوطة ، ص19

11 Philippe gaillard ;l alliance , la guerre d Algérie du général bellounis 1957 , 1958, l harmattan, paris, 2009, p 44

12 Chems edin, l affaire bellounis ,histoire d un général fellagha, éditions de l aube, paris, 1998, p 22

13 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص57

14 شهادة لكاتب زيان ومرافقه المجاهد علي بن عبدالرحمن، عبدالكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص ص 64. 65

15 وردت هذه المعلومات على لسان كثير من الشهود وفي تقرير للمكتب الخامس الفرنسي بارشيف اكس ان بروفانس:

A N O M , boite n, O A 64

16 الطيب فرحات حميدة: المصدر السابق، ص 37، والمداني بجاوي: المرجع السابق، ص119

17 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص78

18 الطيب فرحات حميدة: المصدر السابق، ص 38. 39 ، والمداني بجاوي: المرجع نفسه، ص ص 119. 120

19 الطيب فرحات حميدة: المصدر السابق، ص 39

20 عبدالكريم قذيفة: المرجع السابق، ص 148

21 مجلة اول نوفمبر، عدد 5(، 1982، ص 53

22 شهادة الطيب فرحات، الطيب فرحات حميدة، المصر السابق، ص 34

23 الطيب فرحات حميدة: المصدر نفسه، ص ص 40. 31

24 وثائق المصلحة التاريخية لأرشيف الجيش البري الفرنسي1,1717 ,1H , S H D T

25 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص ص70. 71

26 Gilber myenier, histoire intérieure du F L N , casbah, Alger , 2003, p 457

27 خميسي : العقيد سي الحواس، ص 140 وما بعدها

28 حول الخلاف انظر شهادة الطيب فرحات ، الطيب فرحات حميدة: المصدر السابق، ص ص17 ـ 18

29 الطيب فرحات حميدة: المصدر السابق، ص 25

30 انظر الوثائق زوزو عبدالحميد: محطات في تاريخ الجزائر، د م ج، الجزائر، 2010، ص439

31 تابليت علي: تنظيم هياكل ولاية أوراس النمامشة، مجلة المصادر، عدد 6، 2002، ص 209

32 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص ص68. 74

33 بن جامين سطورا : مصالي الحاج ، منشورات القصبة، الجزائر، ص 260

[34] محمد العربي الزبيري: قراءة في كتاب عبدالناصر والثورة الجزائرية، الجزائر، 2012، ص 169

35 الطيب فرحات حميدة المصدر السابق، ص 49

36 المنظمة الوطنية للمجاهدين: دور الولاية السادسة في التصدي للحركات المناوئة ، الجلفة، 1995، ص 18

37 وثائق المصلحة التاريخية لأرشيف الجيش البري الفرنسي S H D T , 1H, 1717,2

38S H D T , 1H, 1250

39 كثير من الباحثين لا يحتاطون في التعامل مع الوثائق ، وانه يتوجب معرفة مصدرها والظروف المحيطة بها والهدف منها ونقدها ومقارنة من اجل توظيفها الموضوعي في معرفة الحقائق، هذا ما لاحظته من خلال الاطلاع ومناقشة بعض الاطروحات الجامعية، وفي هذا الباب أشيد بأطروحة الباحث عبدالمالك بوعريوة المقدمة حديثا لجامعة قسنطينة بعنوان " جبهة التحرير الوطني وعلاقتها بالحركة المصالية". وكذا أطروحة الباحث بن زروال جمعة المناقشة بجامعة باتنة عام 2012 ، والمعنونة "الحركات الجزائرية المضادة للثورة الجزائرية".

40 المنظمة الوطنية للمجاهدين: الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة ، منشورات د م ج، الجزائر، مج 2، ج 1، ص166

41 شهادة الطيب فرحات حميدة، المصدر السابق، ص ص 25 ـ 29
42 عبد الكريم قذيفة: المرجع نفسه، ص ص116ـ 117
43 مبروك بلحوسين: المراسلات بين الداخل والخارج، تر الصادق عماري، 2004، دار القصبة، الجزائر، ص 159
44 الطيب فرحات حميدة: المصدر السابق، ص 30
45 السقاي، مجلة أول نوفمبر ، عدد 90ـ 91، 1988، ص ص14ـ 15
46 المرجع نفسه، ص 19
47 شهادة الرائد عمر صخري للباحث، بسكرة، 21 ديسمبر 2010
48 السقاي: المرجع السابق، ص 15
49 شهادة الحاج بواكة، الخبر الاسبوعي، عدد 8 جويلية 2005
50 عبد الكريم قذيفة: المرجع السابق ، ص 88

51- Chemse edin, op cit, p 21, 22

52 - S H D T , 1 H 1717,2
53 S H D T , 1H , 1717,2